قراءة في كتاب **الحداثة والمقاومة** للدكتور طه عبد الرحمن

غسّان حمّود

الكلمات المفتاحيّة: المقاومة الإسلاميّة؛ الحداثة؛ أهل البيت؛ الغرب؛ حزب الله.

العلّامة الدكتور طه عبد الرحمن، علم من أعلام الفكر سبق اسمه إلينا شخصه وعلمه علمه، وقد تشرّفنا بلقائه والاستماع إليه العام المنصرم غير مرّة، أتى به إلى وطننا لبنان، رحيق نصر لا يعرف طعمه إلّا الأحرار، سطّر أحرفه أبطال المقاومة الإسلاميّة على الصهاينة، فبدا ما شيّدوا مدار عقود أوهن من بيت العنكبوت.

وقد ميّز محاضرات علامتنا وحواراته حول المقاومة هويّةً وأثرًا، مزيج حبّ اكتوت به أفكاره.

تنظر إلى قسمات وجهه، تستمع إلى نبرات صوته، ترقب تلألؤ الدمعة في ناظريه، تجده **عارفًا** قد وصل، فساوقت إمارات إيمانه كلماته بل سابقتها.

تارةً أخرى، تراه كمتكلّم سبق له أن آمن بأمر لا جدال فيه، يعمل طاقته في البيان والدفاع والإثبات، لم يعتن كثيرا بتفحّص سرّ إيمان سبق أن استسلم له، وأعدّ كلّ العدّة دونه، فالمقاومة للظلم كلّها صواب، ومقاومة حزب الله أصوبها.

ولعلّ في هويّة صاحبنا هذه، ما يجعل له العذر في ما قد يرد على محاضرتيه من التساؤل والاستفهام، فإذا انسلّ ناقد محبّ إلى فكرة منها، يبتغي إبداء تعديل أو تطوير، سيّما مع غياب صاحبها، لوجد، إذ عين محبّته في هذا المقام، تتفوّق على ما عوّدنا من دقّته الفلسفيّة وصرامته الاستدلاليّة.

مع ما يتميّز به علّامتنا من حسن السبك والتبويب والتقسيم ودقّة النظر في المعقول والمنقول واصطناع المصطلح وإبداعه، فإنّنا اعتمادًا على ما سبق وتقدّم ذكره، سنشير إلى بعض التساؤلات الواردة على محاضرتيه، في سياق واحد، غير فاصلين بينهما لنحو اتّصال بينهما، **عمدته المقاومة:**

أوّلًا: من المعلوم للمهتمّ أنّ الحداثة الغربيّة، مع كلّ ما حنطت فينا وتحنط، أصبحت ومنذ عقود مضت، موضع تجاوز في الغرب، حيث يرى الكثيرون أنّ مرحلتها طويت لصالح ما أطلق عليه طور "ما بعد الحداثة" وآخر "الحساسيّة ما بعد الحديثة" أو "منطقًا ثقافيًّا للرأسماليّة المتأخّرة" أو "عصرًا ثقافيًّا أخيرًا في الغرب".

بل من الحديث في الغرب ما ذهب إليه بعض المفكّرين من القول بموت ما بعد الحداثة.

وقد أشار في الصفحة الـ19 من الكتاب، إلى أنّه من آثار التهويل الذي مورس على الإنسان، تصنيف الأمم والأفراد إلى حداثيّين وغير حداثيّين، دون إشارة منه إلى الصراع الدائر في الغرب، بين مدّعي أفول نجم الحداثة هناك وبين مدّعي ماب عدها، أو موت ما بعدها.

بناءً على ما تقدّم، كان من الجدير بالذكر بيان وتبرير سبب الحديث عن الحداثة في الوقت الذي لم يشر إلى ما بعد الحداثة بشيء يُذكر إلى جانب المقاومة، كمدخل للبحث، حتّى يتسنّى للقارئ إدراك المناط في ذلك فتجري به سفينة الأفكار دون المزيد من تلاطم أمواجها.

ثانيًا: في محاولته درء آفات الحداثة الغربيّة، قدّم صاحبنا صورة على نسق واحد للحداثة ومقتضياتها، فهي بحسبه:

في رشدها الناقص انتقلت من الاستقلال من قيد وصاية رجال الدين، إلى الاستقلال من الدين نفسه.

واختزلت مفهوم الإبداع في الانفصال عن قيم التراث.

واختزلت مفهوم الاستدلال في ممارسة العقل الأداتيّ.

وقصرت مفهوم التأثير في مجالات الحياة في التأثير المادّيّ وحده.

وقصرت مفهوم التأثير في المجتمعات في التأثير الفرديّ وحده.

ثمّ انتقل ليحرّر قيم بديلة عدّة أسميت قيمًا إسلاميّة، كالإخلاص والكمال والإيمان والتكامل والروحانيّة والرحمة، وأشار إلى أنّه من شأنها درء آفات الحداثة الغربيّة.

ونحن نميل إلى أنّ القيم المذكورة، وإن أسميناها بالقيم الإسلاميّة، فإنّ الأسلمة هنا لا تفيد الحصر والامتلاك دون الغير، بل تفيد الإقرار بها والاعتراف بها، دون أن يحول ذلك دون كونها قيمًا إنسانيّة جامعة.

كما أنّ ما أشير إليه من آفات الحداثة من نقص واختزال وقصور، يوحي بأنّ الغرب على نسق واحد، في النظرة إلى الإنسان والدين والكون، مع العلم أنّ الغرب وإن كان يلتقي في العديد من أركان ثقافته، إلّا أنّه ليس

على نسق واحد في ذلك، ولا أدلّ على حضور الدينيّ في الدنيويّ في الغرب، من تلك الممارسة السياسيّة الممزوجة بالمعتقد الدينيّ التي تخضع لها الولايات المتّحدة اليوم.

ثالثًا: تلاحظ قلّة الاستشهادات والنصوص في تصوير الحداثة الغربيّة القاصرة والمقوّمة بالقيم البدائل المذكورة، الأمر الذي يفقد الدعوى المقامة عنصرًا أساسيًّا في إثباتها وتحذيرها، وقد كان حريًّا إدراج الاستشهادات اللازمة في كلّ مقام اقتضى الاستشهاد.

رابعًا: المصادر التي تمّ الاعتماد عليها في المحاضرة الثانية من الكتاب، ليست بالكافية دون تدعيمها بمصادر أخرى، فهي مصادر أهل الدار يتحدّثون عن أنفسهم، ممّا يجعل قيمتها العلميّة أقلّ قوّة.

بينما الاطّلاع على المصادر والرؤى النقديّة، أو غير المنتمية لاتّجاهات المقاومة في العالم الإسلاميّ، كما الاطّلاع على التقييمات والإقرارات التي اضطرّ العدوّ للاعتراف بها، أمر لا يخلو من ضرورة، سيّما إذا علمنا مدى الثقة بمصداقيّة المقاومة وثباتها من قبل أعدائها أنفسهم.

والمقاومة مع إبداعاتها التي وفّقت إليها، وإن كانت تستمدّ من الدين روحها وحياتها، فهي في آن تجربة إنسانيّة، أفرادها متفاوتو الإمكانات، لا تدّعي العصمة في الممارسة، بقدر ما تسعى وباستمرار إلى ضبط إيقاع بوصلتها في الاتّجاه الصحيح بما يتناسب وأهدافها، وتعمل جاهدةً على تحسين أدائها، تراقبه وتعترف بأخطائها، تصحّحها في حركة وصيرورة مستمرّتين، غير منفكّة في ذلك عن أصلها الأصيل وهو السعي لأداء تكليفها الشرعيّ الذي أدركت لزومه، وبالتالي فهي تدّعي صدق الإرادة، وصدق الطلب، وربّانيّة الأهداف، وأنّ قادتها على بصيرة من الأمر "فلمّا رأى الله صدْقنا أنزل النصر"[1]، وإنّ هذه العناوين هي التي ضمنت وتضمن الانتصار، ولا تدّعي أنّ كلّ فرد منها قد طوى الطريق وأصبح مدرسة بذاته بالفعل.

خامسًا: إنّ تقديم مقاومة حزب الله وتجربتها في لبنان، على ما سواها من الحركات الإسلاميّة التي نشطت في المجتمعات الإسلاميّة خلال القرون الثلاثة الأخيرة (المشروع الإحيائيّ/ المشروع الاصلاحيّ/ المشروع الأصوليّ) لا يعود الفضل فيه إلى تجربتها الخاصّة في ربع القرن الأخير فحسب، بل إلى ذلك وأهمّ منه، وحتّى لا نصاب بداءَيْ الغرور والعُجب، يعود الفضل أوّلًا وقبل كلّ شيء إلى ما نهلت منه تلك المقاومة، من معين للدين والتديّن، أعلى من رتبة العقل ودوره في فهم النصّ، وأقام بينه وبين الوحي علاقة تكامل لا علاقة تنافر

[1] من حديث أمير المؤمنين عليّ عليه السلام.

وصدام، ممّا أفسح المجال لحركة اجتهاديّة مبكرة في فهم النصوص، واستقراء التجارب، فلم تقف على قشر دون لبّ، الأمر الذي مكّن إنسانها من السير في الأرض بنور السماء، وقادر على التمييز بين "من طلب الحقّ فأخطأه، ومن طلب الباطل فوجده"، وقادر على تفهّم الرأي الآخر، لا يكفر لمخالفة بالفهم، ولم يجعل الدين صنمًا آخر.

فظهور مقاومة حزب الله في لبنان في الربع الأخير من القرن العشرين، لا يعني أنّ بذرتها بذرت آنذاك، بقدر ما يعني توفّر الظروف المساعدة لظهور تجربة طالما تخمّرت بذرتها في حضن تجارب التاريخ الإسلاميّ، غذّتها الروح الربّانيّة لأئمّة أهل البيت عليهم السلام منذ فجر الإسلام، الأمر الذي وفّرت لها الأرضيّة الصلبة التي تقف عليها، وبالتالي فإنّها لم تصغ رؤيتها أو تصنع أفرادها من فراغ.

تمتلك المدرسة التي تنتمي إليها مقاومة حزب الله، مخزونًا تربويًّا هائلًا، سبق كينونتها بقرون، وسوف نشير إلى عنوانين رئيسيّين من عناوين ذلك المخزون:

1- **الإمام الحسين عليه السلام** وخروجه على الحاكم المنحرف، ورفضه مبايعته، وما تلا ذلك من شهادته ومن كان معه من المجاهدين، وتخليد ذكراها على مرّ التاريخ، وبذل الغالي والنفيس لإحيائها كلّ عام، واستلهام معانيها ودلالاتها، وما انزرع في ذوات أنصاره ومحبّيه، ممّا أدّى إلى استنكار الظلم هويّة عندهم.

2- **الأدعية والمناجاة المنقولة عن أئمّة أهل البيت**، وما انطوت عليه من تربية وتعاليم ومواقف، وما توزّعت عليه من آناء الليل وأطراف النهار، في اليوم والشهر والسنة، كلّ ذلك ألقى بظلاله على هويّة المجتمع الذي تنتمي إليه هذه المقاومة، فمهّد لها الطريق قبل كينونتها الآنيّة.

وبالتالي كان من الأجدر بعلامتنا من باب الاستقراء العلميّ لمبنى التجربة – وإن كانت نتائج البحث واحدة – أن يولي هذه البنى التأسيسيّة لمقاومة حزب الله حقّها، فذلك نفعه على الإسلام والمسلمين أعمّ.

أخيرًا، فإنّنا لا نجد إلّا أن نثني على علامتنا، والذي قدّم على مذبح المقاومة الإسلاميّة قربانًا، له أثره الطيّب في قلوب جمع غفير من المتأثّرين بفكره، ممّا يجعله شريكًا في تعميم تجربة المقاومة، ومساهمًا في قرع الأبواب الموصدة دونها، وناشرًا لاريجها في الآفاق.